

(٣١)

قمر

هو رئيس وزرائنا أتم الله له الشفاء ، وأسبغ الله عليه العافية . وقد طلع في سماء مجلس النواب فبهر الأبصار ، وخلق العقول ، وهز القلوب في الصدور ، وأطلق لسان أحد النواب المحترمين بهذه الجملة الشعبية الظريفة « طلع القمر » .

ولكن القمر يطلع في أول الشهر ، ويطلع في أثنائه ، ويطلع في آخره . وله في مطالعه المختلفة هذه أسماء مختلفة ، منها ما يبعث السرور والبهجة ، ومنها ما يبعث الأمل والرجاء ، ومنها ما يبعث في النفس شعورا هادئا شاحبا ، لا بهجة فيه ولا سرور . ولا أمل فيه ولا رجاء . فالهلال يبعث في النفوس الأمل لأنه سيصير بدرا كاملا كما قال أبو تمام . والبدر يبعث في النفوس بهجة وسرورا وثقة ، لأنه يصور القمر في أجمل صورته وأبهأها ، وأخلقها للعقول والأبصار .

ما القمر فلا يبعث في النفوس شيئا خاصا ، وإنما هو شعور هادئ قلما يتجاوز هذا الجمال العام . ففي أي طور طلع قرر رئيس الوزراء أمس في مجلس النواب ؟ لم يكن هلالا من غير شك ! فقد كان هلالا منذ زمن بعيد حين ألف الوزارة ونهض بأعباء الحكم ! ولم يكن بدرا من

غير شك ، فقد كان بدرا منذ زمن بعيد حين استحكم له الأمر ، واجتمعت له أسباب القوة ، فسيطر على مصر غير منازع ولا مدافع ، وأجرى أمورها كما أحب بيد قوية حازمة ، لا تعرف الضعف ، ولا يجد الخور إليها سبيلا . وأطلق لسانه بألوان الخطابة في السياسة حيناً ، وفي الاقتصاد أحياناً ، بالعربية حيناً ، وبالفرنسية أحياناً ، في القاهرة حيناً وفي الأقاليم أحياناً ، بل في مصر حيناً ، وفي أوروبا أحياناً .

كان في ذلك الوقت بدرا كاملاً ! كان قوى البأس ، شديد المراس ، حديد الشكيمة . وكان صحيح الجسم ، موفور النشاط . أما الآن فقد هان بأسه ، ولان مراسه ، وضعفت شكيمته ، وتفرقت عليه الأمور فهو لا يضبطها ، وندت عليه الأعمال فهو لا يستقل بتسييرها وتدبيرها ، وأثر فيه المرض فهو لا ينحطب فيطيل ، وإنما يشكر فيوجز . وهو لا يزور فيقيم ، وإنما يلم ثم ينصرف .

لم يكن هلالاً ، ولم يكن بدرا ، وإنما كان قمرًا في آخر الشهر على أنه لم يكن قمرًا فحسب وإنما كان عرفاً وطيباً أيضاً ، لاح نورة في مجلس النواب ، وكان المجلس مختفياً بريح (١) البصل كما قال بعض الخطباء !! فتبددت هذه الريح ، وتردد في الجو عطر خفيف ظريف ، أنعش نفوساً ، وأحيا آمالاً . وأقر السلام في نصابه بين

(١) كان المجلس يناقش مشكلة تراكم محصول البصل وإضراب المصدرين عن شرائه . وقد عقد اجتماع في الاسكندرية حضره أحمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية وكبار التجار ، فاقترح أحد الحاضرين أن يعدم جزء من البصل الموجود في الميناء حتى يخف الضغط على السوق كما فعلت حكومة البرازيل فرد وكيل الوزارة قائلاً إن هذا الحل ليس من الحلول العملية بدليل أن حكومة البرازيل لم تكرر هذا العمل بعد المرة الأولى . وقد بيع جانب منه بسعر يتراوح بين عشرين وأربعين قرشاً للقنطار . وأخيراً قررت الحكومة شراء البصل لحسابها وتصديره إلى الخارج ليباع بمعرفة مندوبي الحكومة ، وتحملت هي مسئولية ذلك . « كوكب الشرق » في ١٩٣٣/٣/٣٠ .

الفريقين المختصين ، بين المؤيدين والمعارضين . وكان هذا السلام قد استقر من قبل في ذلك المؤتمر الذي انعقد صباح الجمعة ، والذي مهد له بالاجتماعات الخاصة والمقابلات المتكررة ، والذي انتهى إلى صيغتين كتبنا ثم قرئتا ثم أقرتا ، ثم تم الاتفاق على أن يتلو إحداها رئيس المجلس ويتلو الأخرى رئيس المعارضين . وقد أنفذ الاتفاق في أمانة لا غبار عليها . واتخذ تنفيذه مظاهر تمثيلية لا تخلو من جمال ، ولا تميزها اللباقة والرشاقة .

فأما في الفصل الأول من القصة فيجتمع مجلس النواب وتفتح جلسته ، ويأخذ في أعماله كأن لم يكن شيء ، ولكن النظارة لا يشكون في أن شيئا قد كان ، لأن هناك مجالس خالية ولم تكن عاداتها أن تخلو ، وكراسي تنتظر أصحابها ولم يكن من شأنها أن تطيل الانتظار . فأنت إذا تردد بصرك بين المجلس وهو يمضي في أعماله أو يظهر المضي فيها ، وهذه الكراسي الفارغة ، لا تشك في أن شيئا ذا بال قد كان ، وفي أن أمرا ذا خطر سيكون . وفيما أنت تفكر فيما كان وترقب ما سيكون يدخل المعارضون وعلى رأسهم زعيمهم فتشخص الأبصار ، وتشرئب الأعناق ، ويتقدم زعيم المعارضين إلى رئيس المعتذرين ، فيكون حديث لا يسمعه أحد ، ولكن كل إنسان يذهب في تقديره وتفسيره المذاهب . ثم يعود زعيم (١)

(١) زعيم المعارضين هو حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ومعه عبد الحميد سعيد وعبد العزيز الصوفاني . وكانت المعارضة تقدمت باستجواب إلى وزير الأشغال محمد شفيق باشا بخصوص خزان جبل الأولياء وما هي الحاجة الملحة لإنشائه . فذكر الوزير أن دولة رئيس الوزراء سوف يرد على هذا الاستجواب بنفسه ، وطلب مهلة شهر . والذي حدث أن رئيس الوزراء سقط مريضا ، وأرادت الحكومة أن تمرر ميزانية وزارة الأشغال مع إهمال الاستجواب ، فانسحبت المعارضة احتجاجا على ذلك ومرت الميزانية بعد أن وافق عليها النواب جملة واحدة دون مناقشة تفصيلاتها ثم عقد مؤتمر بين المعارضة وبعض الوزراء وانتهى الأمر بإجراء صلح بين الطرفين . صافي يالبن .

المعارضة إلى مكانه ، ويتار رئيس المجلس الصيغة التي كتبت فاذا هو يعتذر
فيبسط العذر ، ويؤكد حبه لحرية الرأي ولحرية الكلام . ثم إذا أتم هذه
الصيغة نهض زعيم الغاضبين فتلا صيغة الرضى ، وإذا هو يسجل ويشكر
ويتمنى ! ثم يجلس ويمضى المجلس في أعماله كأن لم يكن شيء ! وكأن
لم يحدث خلاف .

وتفكر أنت في العواطف التي ثارت في نفوس الغاضبين والمعتذرين ،
والعواطف التي هاجت في قلوب المعارضين والمؤيدين ، وهم يسمعون
اعتذار الرئيس واسترضاءه ، وشكر الزعيم ورضاءه ، وتفكر في العواطف
والعواصف فلا يهتدى تفكيرك إلى شيء ، وتحقق النظر في الوجوه ملتصقا
للعواطف ، والعواصف فلا ترى عاطفة : ولا تنظر بعاصفة ، وإنما هو هدوء
شامل قبل الاعتذار والرضى ، وهدوء شامل بعد الاعتذار والرضى . كان
الجو ملبدا بالغيوم كما يقولون ، ويقصف فيه الرعد ، ويخطف فيه البرق ،
ولكنك تعلم أن الجو يصفو بعد الزوبعة . وقد كانت الزوبعة يوم الأربعاء
فبدأ الجو يصفو يوم الخميس ، وانجلى صباح الجمعة ، وتم صفوه
وانجلاؤه بعد ذلك ، وعاد إلى المجلس هدوءه الشامل وسكونه الكامل ،
وإذا هو يتحدث في بنك التسليف العقاري وفي قانون البصل .

ثم يكون الفصل الثاني ، وفيه يشرق القمر فيبحث في المجلس ضروءا
هادئا فاترا مريحا ، ولكنه باعث للنشاط ، موقظ للهمم على كل حال .
وإذا القوم يقفون إجلالا للقمر ، وإذا القوم يهتفون ترحيبا بالقمر . وإذا
القوم يصفقون إكبارا للقمر ، وإذا أشد القوم نشاطا وأعظمهم قوة يطير
في الجو ، ويصعد في السماء حتى يبلغ القمر فيقبل راحته !! وأى غرابة
في أن يكون للقمر راحة ينال عليها محب القمر باللثم والتقبيل ؟ ثم يتكلم
رئيس المجلس فيرفع التحية إلى القمر ، ويتكلم القمر فيرد التحية على محبيه ،
ثم يغيب القمر فتتبعه القلوب والنفوس ، وتمضى في أثره الأمانى والآمال .

ويعود كل شيء إلى الهدوء والاطمئنان ، وقد نجا المجلس من خصومة
المختصمين ، واعتذار المعتذرين ، ورضى الراضين . وريح البصل وانغمس
في وزارة الزراعة يدرس ميزانيتها في نفس العجلة التي درس فيها ميزانية
وزارة الأشغال مساء الأربعاء !

كذلك تجرى أمورنا في مصر ، اضطراب يعقبه هدوء ، وغضب يعقبه
رضى ، وقمر يطلع ثم يغيب ، ونظارة يرون فيبتسمون ، ويسمعون فيضحكون
حتى إذا أصبح الصباح وتناول الناس الأهرام ، نظروا فإذا الجد كل
الجد في لندرة ، وإذا سياسة مصر تدبر في وزارة الخارجية البريطانية .
أيعود المندوب السامي فيظل القمر مشرقا في السماء ؟ أم ينقل المندوب
السامي فيهوى قمر ويصعد مكانه قمر آخر يبدو هلالا ، والله يعلم أيتم دورته
أم يهوى قبل أن يصير بدرا !